

الناحية الوجدانية في حياة الإنسان أصولها الفسلجية ومقوماتها الاجتماعية

الدكتور نورّي جعفر

الناحية الوجدانية في حياة الإنسان ، التي تعبر عن نفسها في تصرفاته على هيئة عواطف أو مشاعر ، أو انفعالات . هي شكل من أشكال علاقاته بالبيئة التي يعيش فيها الطبيعية والاجتماعية : إنها تعبيرات عن مواقفه إزاء العوامل البيئية التي يتعرض لها طول حياته . وقد ثبت ان جميع أشكال إرتباطات الإنسان ببيئته مصحوبة دائماً بمشاعر معينة سلبية أو إيجابية . معنى هذا ان المشاعر تنقسم على وجه العموم ، من ناحية طبيعة الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء ما يحيط به ، إلى مجموعتين هي المشاعر الإيجابية كالتفاؤل والثقة بالنفس والبهجة والحب ، والمشاعر السلبية العناء مثل الكآبة والقلق والحزن والتشاؤم وما يجري مجراها .

تعتبر المشاعر من الوظائف العقلية الدنيا لأن مراكزها العصبية واقعة

في القسم الأسفل من الدماغ ولأنها كذلك عمليات عقلية دنيا لم تساهم مساهمة إيجابية مباشرة في تقدم الحضارة الإنسانية إلاّ من حيث كونها عوامل حفز الفكر وتنشيطه . تقابل هذه الوظائف العقلية الدنيا وظائف عقلية هي التذكر والتفكير والانتباه والخيال واللغة . وقد سميت هذه الوظائف عقلية علمياً لأن مراكزها العصبية واقعة في القسم الأعلى من الدماغ - القشرة المخية - cerebral cortex ولكونها أيضاً الأساس الفكري الذي ساعد الإنسان على التغلب على الطبيعة وإيجاد الحضارة الإنسانية . ولا بد من الإشارة هنا إلى ان الوظائف العقلية مترابطة متلاحمة عملياً ومتبادلة الأثر رغم تخصصها . كما ان هذه الوظائف المتلاحمة المتكاملة ترتبط بدورها بجميع وجوه نشاط الجسم الأخرى ارتباطاً عضوياً غير قابل للإنعزال إلاّ لأغراض الدراسة النظرية. والنشاط الجسمي بأسره العقلي وغير العقلي مرتبط بدوره أوثق ارتباط بالظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان . وأداة ربط الإنسان ببيئته هي الجهاز العصبي بأقسامه الثلاثة : الطرفي أو المحيط والمركزي والمستقل . ومن الممكن لغرض التوضيح المبسط أن نشبه الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والحبل الشوكي) . بجسم حي له ذراعان تمتد إحداهما نحو البيئة الخارجية لترتبط الجسم بها (الجهاز العصبي المحيط أو اعضاء الحس) وتمتد الأخرى نحو داخل الجسم لتنظم وظائف الأحشاء .

والعلاقة بين العواطف والفكر متبادلة الأثر وان العواطف في حقيقتها هي محركات السلوك أو دوافعه الأساسية . ومثلها في هذا الشأن مثل الوقود بالنسبة للنار . معنى هذا ان الفكر لا يحدث إلاّ إذا استلزمه حالة انفعالية خاصة يمر بها الإنسان أثناء مواجهته مشكلة ما يتحتم عليه حلها . وحتى النكوص عن مواجهة المشكلة هو حالة انفعالية يمر بها الإنسان تتميز في انه اخفق في مواجهة تلك المشكلة مواجهة سديدة

أو صائبة . غير ان مهمة الإنفعالات تنتهي عند إثارة الفكر وذلك لأن الإنفعالات متسعة في طبيعتها مندفعة لا تسمح لصاحبها ان ينظر في عواقب الأمور بتوؤدة أو روية أو إتزان وهي صفات تقع في صميم عملية التفكير لأن الفكر نشاط ذهني ناقد أو فاحص أو ممحص يستبعد القيام بعمل طائش ، أي ان الفكر يربث ويستقصي ويستلزم نشوء رجوع مؤجل أو استجابة تبقى في الذهن إلى أن تستوفي شروطها الموضوعية اللازمة لتخرج إلى حيز الوجود على هيئة تعرف يقوم بها الفرد . وفي علاقة الفكر بالإنفعالات تبدو أهم مفارقاته . فهو لا يحدث إلا إذا سبقه موقف عاطفي معين ولكنه لا ينجز واجبه على الوجه الأتم إلا إذا تحرر من العاطفة التي أثارته ونظر إلى المسألة التي بين يديه نظرة سديدة مبنية على الملاحظة الدقيقة الواعية والإستنباط الصائب . معنى هذا ان الفكر يستلزم الإنفعالات ولا يستلزمها في آن واحد : يستلزمها محدودة ولا يستلزمها بعد ذلك لثلا تفسده . فالفكر إذن عاطفي وغير عاطفي على حد سواء . والإنسان ، كما يقولون ، ابن عواطفه باعتبارها عوامل الحفز أو الحث على العمل وبذل الجهد وفقدانها يعني الخمود وفقدان الحياة في آخر المطاف . يصدق هذا على الأفراد كما يصدق على الأمم . وقد أدى ذلك ببعض الباحثين إلى أن يعتبروا العواطف أقوى من الفكر السديد في نشوء الرأي العام والشعور المشترك بين أفراد الشعب الواحد وبخاصة في وقت الأزمات حتى قال بعضهم ان من يسيطر على المغنين والشعراء فقد سيطر على مشاعر مجتمعهم ولا يهمه بعد ذلك ان يعرف من يصوغ قوانين المجتمع . ويبدو أن كثيراً من المبادئ السياسية والإجتماعية مدينة في سيطرتها على السلوك لقدرتها على التغلغل في أعماق النفس البشرية بنشر وسائل النشر المتيسرة .

ثبت بالفحص المختبري ، منذ منتصف القرن الماضي ، وبخاصة في

أعقاب دراسات العالم الفرنسي Broca (١٨٢٤ - ١٨٨٠) وجود مراكز مخية لغوية في القسم الأمامي الأعلى من مخ الإنسان تميزه عن جميع الحيوانات الراقية الأخرى . ثم توالى الأبحاث المخبرية والدراسات المحققة التي عززت ما قد وصل إليه بروكا . وتأتي في مقدمة هذه الأبحاث دراسات عالمي الفسلجة الألمانيين Fritsch (١٨٣٩ - ١٨٩١) و Hitzig (١٨٣٨ - ١٩٠٧) التي أجريها على أدمغة الجنود الجرحى في أدمغتهم أثناء معركة سيدان ١٨٧٠ في الحرب البروسية الفرنسية . واستقرت منذ ذلك الحين ، لا سيما بنتيجة أبحاث عالم الأعصاب الكندي Penfield منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ان المراكز المخية اللغوية ذات اختصاصات متعددة لكل منها وظيفة لغوية خاصة يمارسها وان تعطيل أحد هذه المراكز عن العمل بسبب خلل فسلجي يعتره يؤدي حتماً إلى تعطيل وظيفته اللغوية . فهناك مثلاً الركن المخي اللغوي المسؤول عن الكلمات المنطوق بها يؤدي فقده إلى فقدان القدرة على النطق Motor aphasia مع استمرار قدرته على فهم كلام الآخرين . وهناك أيضاً المركز المخي اللغوي المسؤول عن الكلمات المقروءة . وهناك أيضاً المركز المخي اللغوي المسؤول عن الكلمات المسموعة التي ينطق بها الآخرون يؤدي فقده إلى عدم فهم معاني الكلمات التي يتحدث بها الآخرون sensory aphasia مع استمرار قدرته على التحدث .

ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض الباحثين يقسم قشرة مخ الإنسان من ناحية تركيب خلاياها العصبية ، في ضوء علم تركيب خلايا المخ ، Cytoarchitectonics إلى زهاء مئتي منطقة مخية لغوية وحركية وحسية (بصرية وسمعية وشمية الخ) يقع ثلثها تقريباً في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية حيث تقع المراكز المخية اللغوية أو مراكز العمليات العقلية العليا (التذكر والتفكير والخيال والانتباه) .

ويذهب بعض آخر إلى الجهة العاكسة فيقسمها إلى مناطق منجية محدودة العدد لا تتجاوز العشر . ويجنح فريق ثالث ، وهم أصحاب الرأي الأكثر اعتدالاً وقبولاً ، نحو تقسيمها إلى خمسين منطقة منجية متخصصة ومتلاحمة ومتكاملة من حيث تركيبها التشريحي ومن ناحية وظائفها الفسلجية .

وثبت مخبرياً أيضاً ، كما دلت أبحاث Hess مثلاً ، على ان التنبه الكهربائي لمناطق مختلفة تقع تحت المخ وبالتحديد في منطقة الدماغ الأوسط dienicephalon عند بعض الحيوانات يؤدي إلى نشوء حالات انفعالية متنافرة . يثير بعضها مشاعر الخوف والهلع fury ويثير بعض آخر مشاعر الهدوء والطمأنينة . وقد دلت تجارب فسلجية طريقة أجزاها Olds و Milner في عام ١٩٥٤ على وجود مراكز دماغية واقعة تحت المخ subcortex مسؤولة عن حدوث الإنفعالات الإيجابية كالفرح مثلاً وأخرى عن نشوء الإنفعالات السلبية العاكسة واقعة في منطقة هايبوتا لاس تحت المخ . واتضح ، في ضوء ذلك ، ان فقدان سيطرة القشرة المخية على المراكز الدماغية الواقعة تحتها والمسؤولة عن الإنفعالات يجعل الشخص المنفعل يقوم بتصرفات أو يتفوه بكلمات لا يسمح لنفسه إتيانها في حالته الهادئة الممتازة .

وكثيراً ما يأسف على إتيانه إياها ويعتذر عنها بعد زوال فورة الإنفعال بالتعبير الدارج أو عودة القشرة المخية إلى ممارسة عملها الطبيعي بالتعبير الفسلجي .

تصاحب الحالات الإنفعالية علامات جسمية ملحوظة تبدو على قسما الوجه وتصرفات الشخص وفي تعبيراته اللغوية . وهي ناجمة في الأصل عن إفرازات (هورمونات) الغدد الصم . فمشاعر الغضب مثلاً يرافقها إزدیاد في كمية السكر في الدم وتبدل في درجة لزوجته Visitory وتمدد

delation في الأوعية الدموية المنتشرة في الدماغ والقلب والرئتين .

ولهذه الظواهر الفسلجية أهمية بايولوجية كبرى في حشر طاقة الجسم وتحفزه للقيام بعمل معين أثناء الإنقضااض على الخصم أو الإفلات منه . وكثيراً ما يؤدي الهلع الذي ينتاب الإنسان أو الحيوان عندما تصبح حياته مهددة بخطر داهم وفقدان القدرة على تحديه بشكل إيجابي فعال أو التخلص منه إلى حدوث حالة تخشب أو جمود *stupor* وذلك بفقدان القدرة على الحركة طوال فترة وجود الخطر . معنى هذا أن الحالات الإنفعالية تكون مصحوبة دائماً بتغيرات بايوكيماوية تحدث في الجسم بفعل إفرازات الغدد الصم : *endocrine glands* تبدو هذه التغيرات في الوقت الحاضر كأنها عارضة عديمة الأهمية ولكنها كانت في الماضي السحيق ذات أهمية بايولوجية كبرى عند الإنسان البدائي القديم . فزيادة السكر في الدم التي أشرنا إليها أثناء الفزع أو الهلع أو الرعب تساعد على زيادة طاقة الجسم الدفاعية . وقد ثبت أيضاً ان الإنفعالات الإيجابية *sthenic* مثل السرور والتفاؤل والطمأنينة إذا استمرت فترة طويلة من الزمن فإنها تؤدي إلى السمنة وتقلل من إفراز الفوسفات وكلوريد الصوديوم في الجسم . ويحدث العكس عند حصول الإنفعالات السلبية *asthenic* مثل الكمد والتشاؤم والفزع حيث تزداد الفوسفات في الجسم زيادة ملحوظة مما يؤدي ، مع عوامل أخرى إلى الهزال وتناقص الوزن . كما ثبت أيضاً ان بعض الإضطرابات الإنفعالية يؤدي إلى الإصابة بالبول السكري *diabetes* وإلى تضخم الغدة الدرقية *goitre* وإلى حدوث اضطرابات فسلجية في وظائف القلب والهضم . كما ثبت كذلك ، من الناحية المعاكسة ، وجود حالات يتم فيها التغلب على بعض الأمراض باستثارة إنفعالات إيجابية . وحالات التغلب السايكولوجي على الشعور بالألم معروفة . وتفسير ذلك من الناحية

الفلسفية راجع إلى ان عدم الإحساس بالألم أثناء تعرض الشخص مثلاً للتعذيب لسبب رأي يؤمن به هو أن بؤرة الإثارة أو الإنتباه المركز في مراكزه المخية اللغوية المرتبطة بذلك الرأي تبلغ أرفع مستوياتها بحيث أنها بحسب مبدأ الإثارة المتبادلة mutual induction تكف أو توقف عن العمل أو تقمع inpilits البؤرة الدماغية الحسية التي تشمل الشعور بالألم .

دلت الأبحاث الفلسفية الحديثة على وجود ترابط وثيق وأثر متبادل بين جهاز الغدد الصم وبين الجهاز العصبي المركزي لا سيما المخ . معنى هذا ان الغدد الصم تخضع لتأثير المخ كما تخضع سائر أعضاء الجسم وأجهزته . وتؤثر فيه أيضاً . ويتم هذا التأثير المتبادل بطريقة غير مباشرة عبر الأعصاب التي تربط المخ بالغدد الصم وبطريقة مباشرة عن طريق الغدة النخاعية Jeituitary body التي تنظم بدورها وظائف الغدد الصم الأخرى . وبالنظر لثبوت هذا الأثر المتبادل بين المخ والغدد الصم فقد أخذ علماء الفلسفة المعاصرون يستعملون مصطلح الجهاز المخي الغددي neuroendocrine او neurohumoral للتعبير عن عمل الجهازين معاً بشكل غير قابل للعزل من الناحية العملية . وفي هذا تنفيذ علمي للإتجاهات الفلسفية المغلوطة الشائعة التي تعتبر جهاز الغدد الصم جهازاً فلسفياً قائماً في حد ذاته وان كل غدة فيه هي الأخرى مستقلة عن غيرها .

ترتبط التغييرات الإنفعالية إرتباطاً وثيقاً باللغة من حيث عوامل إستثارته ومن ناحية أسلوب التعبير عنها . وتدل الحياة اليومية المعتادة والتجارب المختبرية على ان الكلمات ذات أثر فلسفي عميق في نشاط الإنسان الإنفعالي من الناحيتين الإيجابية والسلبية على حد سواء . وهذا يفسر لنا الأساس الفلسفي لظاهرة الإيحاء suggestion السايكولوجية فالإيحاء بالكلمات أو الإشارات يحول بسرعة وسهولة خلايا القشرة المخية اللغوية لدي الشخص الذي يتعرض لتأثير الإيحاء إلى حالة كف مع

إستبقاء بؤرة إثارة قوية تتركز في معاني تلك الكلمات أو الإشارات .
يحدث هذا بالطبع وفق مبدأ الإستثارة المتبادلة الذي يخضع له نشاط
عمليتي الإثارة excitation والكف inhibition في القشرة المخية
بين المراكز المخية اللغوية والحسية من جهة وبين القشرة المخية والمراكز
الدماعية الإنفعالية من جهة أخرى . معنى هذا ان ظاهرة الإيحاء تستند
سلبياً ، من الناحية الفلسجية ، إلى تجميد عمل غالبية خلايا القشرة
المخية من ناحية وتستند إيجابياً من الناحية الثانية إلى نشوء بؤرة إثارة
قوية تتركز في معاني تلك الكلمات أو الإشارات كما بينا . أي ان الأداة
الفلسجية الجوهرية التي تستند إليها الإيحاء هي تفكك أو بعبارة
dissociation تماسك عمل القشرة المخية اليومي المعتاد الذي تمارسه
باعتبارها كياناً واحداً متماسكاً .

ثبت مختبرياً وفي مجرى الحياة اليومية ان باستطاعة الكلمة ان تستثير
استجابة جسمية يستثيرها المنبه الحسي المادي الذي تدل تلك الكلمة عليه .
فسيلان لعاب الفم يستثار مثلاً عندما يرى الشخص الجائع الطعام أو
يشم رائحته وعند التحدث عنه أيضاً . وقد استطاع بعض الإطباء إيجاد
اعراض حمل وهمي لدي بعض السيدات عن طريق الإيحاء اللفظي .
كما استطاع بعض علماء الفلسجة ان يحدثوا علامات نشوة أو ترنح لدي
بعض الأشخاص الذين وضعوهم في حالة نوم جزئي وقدموا لهم أقداحاً
من الماء وأوحوا إليهم بالكلمات انها مادة مسكرة أثناء تناولها . وحدث
العكس في تجارب أخرى . وقد بدت في إحدى التجارب علامات
الإنسراح على سيدة قيل لها عندما كانت في حالة نوم جزئي انها تشم
رائحة زكية يتضوع أريجها في حين ان المادة التي شمت رائحتها كانت
غاز الامونيا الكريه الرائحة . وتناول بعضهم في تجارب أخرى مادة
مرة المذاق على أنها سكر . وخيل لبعض آخر في تجربة أخرى انه

يرى سائلاً أزرق اللون في حين ان لون السائل كان أبيض . وعولج كثير من الأشخاص ضد دوار البحر بالإبحاء اللفظي . واستطاع بعض الجراحين إجراء عمليات جراحية صغرى عن طريق الإبحاء اللفظي دون استعمال التخدير لإزالة الشعور بالألم .

ترك العبارات الدقيقة التي يوجهها الطبيب إلى المريض أثراً إيجابياً في نفسه يساعده على الشفاء إذا توافر العلاج الطبي المناسب وذلك لأنها تؤدي إلى تنبيه مراكز مخية معينة . وتدل المشاهدة على أن أثر تلك العبارات يزداد عندما ينطقها الطبيب بقوة وهدوء ووضوح ويعيدها مرات متعددة في فترات متباعدة نسبياً وذلك لأنها تؤدي في هذه الحالة إلى نشوء وصلات فلسجية ديناميكية في القشرة المخية . ويدخل هذا الاجراء ضمن نطاق العلاج النفسي psychotherapy . غير ان هذا الاجراء ليس مضمون النتائج الإيجابية في جميع الأحوال . فقد يخفق الطبيب أحياناً في الحصول على الثمرة المرجوة لعوامل متعددة ومتشابكة يأتي في مقدمتها خطأ يرتكبه الطبيب نفسه في تشخيص طبيعة المرض أو عند تقاعسه في علاجه المناسب أو بنتيجة إهماله حالة المريض النفسية ومخالفته قواعد الرعاية أو الكياسة أو فقدانه الحنو أو جعله المريض يفقد الثقة بنفسه أو حين تبدو على محياه انفعالات سلبية كثيرة لأن ذلك كله يؤدي إلى حدوث خمود باتولوجي في عملتين الإثارة والكف المخيتين الأمر الذي يجعل الشفاء متعذراً .

ثبت ان نشاط القشرة المخية يهبط كثيراً عند المرأة أثناء الحمل وفي فترة الرضاعة lactatini وبخاصة إذا كانت المرأة ذات نمط جهاز عصبي مركزي خفيف حيث تقع فريسة للعوامل الإيحائية الخارجية ولأبسط التعليقات . والعبارات التي يطلقها الطبيب مثلاً في كل حالة ماله علاقة بالولادة فتثار مخاوفها ومشاعرها السلبية الأخرى المتصلة بالآلام التي

تتوقع حدوثها عند الولادة . وللتغلب على ذلك نشأ إتجاه جديد في التوليد غير المصحوب بالألم يسمى psychoprophylaxis فحواه ان الولادة (أو الوضع) من حيث هي ظاهرة فسلجية طبيعية لا تكون بالضرورة مصحوبة بالألم . أي أن الألم الذي تشعر به الحامل أثناء الوضع ليس فطرياً ، بل هو إجتماعي مكتسب من الممكن تجنبه إذا بذلت الجهود الملائمة واقتنعت الحامل بذلك عن طريق الإيحاء والإقناع . ومع ذلك فإن المؤثرات الإيحائية اللفظية قد لا تكون فعالة لدى بعض الأشخاص لا سيما أولئك الذين تتغلب عندهم بوضوح المراكز المخية اللغوية على المراكز الحسية المخية وهم رجال الفكر عموماً كما سئرى . ويحدث العكس لدى الأشخاص الذين تتغلب عندهم بوضوح المراكز المخية الحسية على المراكز اللغوية المخية وهم رجال الفن عموماً بما فيهم الشعراء . ولنزلة الشخص الذي يقوم بعملية الإيحاء اللفظي تحدثاً وبالكتابة عند السامع أو القاريء أثر كبير في نجاح الإيحاء : فالطبيب مثلاً بالنسبة للمريض وكالمدرس بالنسبة للطالب .

يتعرض الشخص الذي توجه إليه كلمات نابية أو قارصة لاهانته أو إزدرائته في ظروف إجتماعية لا تسمح له بالرد عليها بالقول أو الفعل إلى إضطرابات إنفعالية عميقة ربما تؤدى إلى الإنهيار العصبي إذا كان شعوره بالإهانة عميقاً وإذا تكرر حدوثها . والعامل الفسلجي في ذلك هو تعذر تغلبه على الصراع الداخلي الذي يساوره بفعل تحميل عملية الكف المخي عبئاً فسلجياً تنوء به قدرتها الفسلجية . والكلمات الجارحة تحدث تبدلات فسلجية عميقة في المخ لا سيما ذوي نمط الجهاز العصبي المركزي الضعيف ونمط الجهاز العصبي المركزي الطائش وذلك لضعف عملية الكف عندهما . معنى هذا ان الإنهيار العصبي الذي يعترى الشخص المهان هو حالة تقويض فسلجي يحدث بسبب اضطراره إلى كبت إنفعالاته

الجريحة لعوامل اجتماعية محضة حيث تتعرض عملية الكشف المخي عنده لتحمل عبء فلسفي ثقيل تنوء به طاقتها الفلسفية . يحدث ذلك بنتيجة عدم السماح لعملية الإثارة بالتعبير عن نفسها تفادياً لحدوث ملاحظات أو متاعب محتملة . وأفضل أساليب التغلب على الآثار السيئة للإيحاء اللفظي هو تنشيط عمل القشرة المخية في ظروف اليقظة بشكل إيجابي فعال وبكلمات رقيقة مشجعة تبعث الثقة بالنفس . وفي الدراسة بصورة خاصة لا بد من السير المتدرج الصاعد من السهل إلى الصعب وان يعمل المدرس على تدريب عملية الكف عند الطلاب وتعويدهم على الإثارة المترنة . كما ينبغي للمدرس أن يتذكر دائماً وبخاصة في المراحل الدنيا في سلم التعليم نشوء حالات إنفعالية عنيفة أحياناً يمر بها الطالب في حياته المدرسية وفي مقدمتها استدعاؤه إلى السبورة مثلاً أو توجيه أسئلة مخرجة إليه أثناء المناقشة أو الإمتحان . هذه الضغوط السايكولوجية تخلف متاعب كثيرة في الجهاز العصبي المركزي الضعيف والقوي الكائن وعند الفنانين أو مرهفي الحس حيث تتغلب المراكز المخية اللغوية . وإذا رافق ذلك إزدراء المدرس الطالب أو تأنيبه إياه أمام زملائه لإخفاقه مثلاً في إعطاء الإجابة المطلوبة فإن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى نشوء اضطرابات انفعالية عنيفة لديه .

يعتبر ميسمر ، الطبيب الفرنسي الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر أول من فطن إلى إستعمال العلاج النفسي عن طريق الإيحاء اللفظي وإن كانت آراؤه المتعلقة بتفسير طبيعة ظاهرة الإيحاء ليست علمية بمقاييسنا الحديثة لأنه اعتبر الإيحاء « قوة » خاصة ناجمة عن تدفقات emanatinis خاصة سهاها « السوائل » . ولعل الجراح البريطاني Braid أول من أعطى تفسيراً فلسفياً في عام ١٨٤٣ للأثر التخديري hypnotic الذي يتركه الإيحاء في المريض فيجعله لا يشعر بالألم أثناء تعرضه للعمليات

الجراحية وكان ذلك قبل اكتشاف التخدير الطبي المعروف anaesthesia آنذاك . وكان بريد أول من استعمل مصطلح التخدير hipnosis عن طريق الإيحاء اللفظي . ثم تابعت الأبحاث الفسلجية في هذا الباب ونشأت في فرنسا مدرستان مختلفتان في تفسيرهما طبيعة التخدير السايكولوجي هما مدرسة Charcot في باريس عام ١٨٧٨ التي اعتبرت التخدير السايكولوجي ظاهرة باثولوجية لا تحدث إلاّ لدي المصابين بالهستيريا . ومدرسة Bernheim التي نشأت في نانسي عام ١٨٨٤ واعتبرت التخدير النفسي الناجم عن الإيحاء ظاهرة فسلجية طبيعية موجودة لدي جميع الأشخاص بدرجات متفاوتة . في أواخر القرن الماضي نشأت في النمسة بجهود فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) مدرسة التحليل النفسي المعروفة التي اعتبرت الغرائز لا سيما الغريزة الجنسية أساس السلوك واغفلت إلى درجة التلاشي المؤثرات الإجتماعية والأصل الفسلجي لظاهرة الإيحاء النفسي .

يستند التفسير الفسلجي الحديث لظاهرة الإيحاء السايكولوجي إلى نظرية النشاط العصبي الأعلى التي وضعها بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) في مطلع هذا القرن والتي ترتبط بعملية الكف والنوم الجزئي والحالات الإنتقالية التخديرية المتدرجة بين اليقظة والنوم ونقاط للحراسة الفسلجية . وقد أزيل في ضوء هذه النظرية الغموض الذي استعصى على الباحثين حله في تفسير هذه الظاهرة النفسية . فالإيحاء ، عند بافلوف منعكس شرطي بسيط ينفرد به الإنسان وأنه (والإيحاء الذاتي أيضاً autosuggestion) يستند فسلجياً إلى نشوء عملية إثارة مركزة في نقطة أو منطقة معينة من القشرة المخية تظهر على هيئة إحساس مثار بفعل بيئي خارجي أو داخلي (يعني انه آت من الأحشاء) أو بفعل أثر trace أحدهما . واذ هذه الإثارة تصبح ذات أهمية كبرى تتعذر مقاومتها وبخاصة في القشرة المخية الضعيفة ذات النشاط العصبي الدافئ بسبب المرض مثلاً أو بسبب

ضعف الجهاز العصبي المركزي نفسه . فينتج عن هذه الإثارة القوية ، وفق مبدأ الإستثارة المتبادلة ، أثر سلبي قوي يظهر على هيئة عملية كف تتاب أرجاء القشرة المخية الأخرى وتعزل عملية الإثارة الآنف ذكرها عزلاً تاماً مطلقاً عن جميع المؤثرات الأخرى . ولهذا نجد الكلمات التي يوجهها الطبيب إلى المريض أو التي يوجهها المنوم إلى المنوم إيحائياً أو الأوامر الصادرة في هذا الشأن تصل إلى نقطة معينة في القشرة المخية فتستثيرها دون مقاومة تذكر وتؤدي في الوقت نفسه إلى نشوء عملية قمع في أنحاء القشرة المخية الأخرى . معنى هذا ان تلك الأوامر تنعزل تمام الإنعزال عن جميع المؤثرات البيئية الأخرى وتتحول إلى منبه مطلق ينفرد وحده في الميدان ويستأثر دون منازع باهتمام المريض أو المنوم إيحائياً ويستمر أحياناً فترة طويلة بعد استيقاظه . يتضح إذن ان المنبهات اللفظية والحسية (الكلمات والأحداث الأخرى مثلاً) تؤدي إلى حدوث عملية إثارة قوية في المركز المخي الذي توجه إليه وتنتشر عبر المراكز الدماغية التي تقع المخ وتجاوره :

adjacent subcortex التي تقع فيها المراكز العصبية المسؤولة عن النشاط الإنفعالي والغريزي . كما تنتشر أيضاً إلى الغدد الصم التي ترتبط فسلجياً بالقشرة المخية وبالجهاز العصبي المستقل كما بينا .

ينقسم الناس عموماً ، في ضوء العلاقة أو الصلة بين مراكزهم المخية اللغوية ومراكزهم الحسية من جهة وبين قشرتهم المخية (بمراكزهم اللغوية والحسية) المسؤولة عن العمليات العقلية العليا - التذكر والتفكير والخيال والإنباه - وبين الأقسام الدماغية التي تجاور القشرة المخية وتقع تحتها والمسؤولة عن الحياة الوجدانية أو الوظائف العقلية لدينا من جهة ثانية إلى ثلاثة أنماط كبرى على وجه العموم هي :

أولاً : نمط الفنانين على اختلاف أصنافهم بما فيهم الشعراء والكتاب

حيث تتغلب عندهم المراكز المخية الحسية (لا سيما البصرية) من ناحية تطور خلاياها العصبية على المراكز المخية اللغوية من جهة وتتغلب عندهم مراكز الإنفعالات الدماغية على القشرة المخية أساس العمليات العقلية العليا فيدركون بمشاعرهم المرفهة البيئة التي يعيشون فيها ، الإجتماعية والطبيعية إدراكاً حياً بإعتبارها كياناً متماسكاً ويعبرون عنها بأحاسيسهم الفضاضة . أي أنهم يستندون في إدراك البيئة وفي التعبير عنها على مدركاتهم الحسية أو الصور الذهنية الطريقة الحية الذاهة لأعلى الرموز والمعادلات الرياضية كما هي الحال عند المفكرين كما سرى . فينظرون إلى ظواهر الطبيعة والمجتمع بتلاحمها وترابطها العضوي ويعبرون عنها بصور ذهنية حسية مترفة زاهية (وان كانت تخالف الواقع) دون أن يجزئوها أو يفككوها . وفي الشعر العربي أمثلة رائعة نذكر منها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .:

قال أحد الشعراء .

الصبح غرته وشعر عذاره ليل ونبت الشيب فيه نجوم

وقال الفرزدق :

وتقول كيف يميل مثلك للصبا وعليك من سمته الحليم عذار
والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانيه نهار

وقال المتنبي :

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي الثناء على الحيا فتفوح
جهد المقل فكيف بابن كريمة توليه خيراً واللسان فصيح

وقال أيضاً :

وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى النجم يرتقي

وقال أيضاً :

وغالبه الأعداء ثم عنوا له
لا ملك إلا أنت والملك فضلة
وكما غالبت بيض السيوف رقاب
كأنك سيف فيه وهو قراب
وقال أيضاً :

ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسي
بكى بعيون سرها وقلوب
وقال كذلك :

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه
ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد
وقال علي بن محمد الكوفي :

متى ارتجى يوماً شفاء من الضنا
كأن سواد الليل في ضوء صبحه
إذا كان جانيه عليّ طيبي
سواد ثياب في يياض مشيب
وقال الجواهري :

سلام على مثقل بالحديد
سلام على الجاعلين الخوف جسوراً
ويشمخ كالقائد الظافر
مفاتيح مستقبل زاهر
كأن الحديد على معصميه

وقال المتنبي :

كأن الهام في الهيجا عيون
وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقال أيضاً :

كأن على الجماجم منه ناراً
وأيدي القوم أجنحة الفراش

وقال آخر :

لا يكشف الغمء إلاّ ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

وقد تصل هذه الصورة الذهنية الرائعة إلى درجة مسخ الحقائق الموضوعية وتشويهها وتبدو على هيئة ملق مبتدل . وقد يناقض الشاعر نفسه فيمدح الشخص أحياناً مدحاً مبالغاً فيه ثم يوسعه أحياناً أخرى بامض اللوم وأقسى عبارات التقريع والذم . وهو صادق المشاعر في الحاليتين لأنه يرى الناس باحساسية . وكلما كان الشاعر مخللاً كان ذلك أوضح في شعره . وفي شعر المتنبي من الأمثلة على ذلك الشيء الكثير استمع إليه يخاطب كافوراً :

قضى الله يا كافور انك أول وليس بقاض أن يرى لك ثان
لو الفلك الدوار ابغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

ولكن بالفسطاط بجرّاً أزرته
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً
قواصد كافور تدارك غيره
فجاءت بنا إنسان عين زمانه
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده
إذا كسب الناس المعالي بالندی
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب
ومن قول سام لو رأك لنسله
فدي ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

على كل بحر زخرة وعباب
رماء وطعن والامام ضراب
ولو لم يقدها نائل وعقاب
وكم أسد أرواحهن كلاب
كأنك سيف فيه وهو قراب
كما غالبت بيض السيوف رقاب
ومدحك حق ليس فيه كذاب
له كل يوم بلدة وصحاب
فما عنك لي إلا إليك ذهب

وبحر أبو المسك الخضم الذي له
وأوسع ما تلقاه صدرأ وخلفه
يقود إليه طاعة الناس فضله
أيا أسداً في جسمه روح ضيغم
ولا ملك إلا أنت والملك فضلة
وغالبه الأعداء ثم عنوا له
وان مديح الناس حق وباطل
وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً
ولكنك الدنيا أي حبيبة

بمكان في الأرض أو في السماء
لضياء يزري بكل ضياء
لم يكن غير أن أراك رجائي

أنت أعلى محلة أن تهنّي
ان في ثوبك الذي المجد فيه
يا رجاء العيون في كل أرض

قبل اكتهال ، أديباً قبل تأديب
مهذباً كرمأ من غير تهذيب
إلى العراق فأرض الروم فالنوب
فما تهب بها إلا بترتيب
إلا ومنه لها إذن بتغريب

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلأ
مجرّباً فهماً من قبل تجربة
يدبّر الملك من مصر إلى عدن
إذا أتها الرياح النكب من بلد
ولا تجاوزها شمس إذا أشرقت

ثم استمع اليه يذمه :

وجنبأ أشخصاً لحت لي ام مخازيا
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

أمينأ وإخلافأ وغدرأ وخسة
وتعجبني رجلاك في النعل اني
وانك لا تدري ألونك أسود
فان كنت لا خيراً افدت فاني

ومثلك يُؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

وكم ذا بمصر من المضحكات
بها نبطي من أهل السواد
وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى
ولكنه ضحك كالبكا
يُدرس انساب أهل الفلا

أكلما اغتال عبد السوء سيده
لا تشر العبد إلاّ والعصا معه
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
إلاّ وفي يده من ننتها عود
أو خانه فله في مصر تمهيد
إن العبيد لأنجاس مناكيد

ثانياً : نمط المفكرين على اختلاف تخصصهم العلمي حيث تغلب عندهم المراكز المخية اللغوية من ناحية تطور خلاياها وهي المسؤولة عن الوظائف العقلية العليا على المراكز المخية الحسية من جهة ويتغلب المخ من ناحية تطور خلاياه العصبية على الأقسام الدماغية التي تقع تحته والمسؤولة عن الإنفعالات من جهة أخرى ، فيدرك هؤلاء الطبيعة والمجتمع عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية ويفككونها إلى عناصرها الأولية ليفهموا جوهرها ويكشفوا عن ارتباطاتها والقوانين التي يخضع لها سلوكها . ولهذا نجد المصابين بالإضطرابات العصبية من هؤلاء يقعون في العادة فريسة لمرض الهبوط النفسي أو الحذر psychasthenia وهو نوع من اضطرابات الفكر الباثولوجية تبدو على شكل تفكير متزمت جاف وعلى هيئة فقدان تام بالحياة الوجدانية والشعور بتفاهة الحياة والتخاذل أمام مصاعبها بالإضافة إلى نشوء المخاوف وعلامات المعرفة المنحرفة العقيمة للبيئة المحيطة وباللغة في « العقلانية » المتطرفة أو ما يسمى chewing of the end وبالتخلف المتطرف في التعبير الوجداني الأمر الذي يؤدي إلى الانتحار أحياناً كما حدث للمفكر الفرنسي أوكست كومت (1798 -

(١٨٥٧) . يقابل هذا عند الفنانين التعرض للإصابة بالهستيريا التي تعبر نفسها بانفعالات متسرفة باثولوجية وتصرفات بدائية غير ناجحة ناضجة على غرار ما هي عند الأطفال . أي بالتغلب المفرط الباثولوجي لنشاط المراكز التي تقع تحت المخ على المخ وبالتغلب المفرط الباثولوجي أيضاً للمراكز المخية الحسية على المراكز اللغوية الأمر الذي يجعل هؤلاء يعانون من أوهام باثولوجية واندفاعات متسببة بصاحبها تحطيم عميق للتوازن العصبي يتحول أحياناً إلى شلل وإلى انكماش باثولوجي contracture أو فتور letharpy ونوبات عصبية convulsive fists وانفعالات طائشة متهورة أحياناً أخرى .

ثالثاً : النمط المعتدل أو الأوسط وهم أغلبية الناس حيث تكافأ عندهم قوة المراكز المخية اللغوية والمراكز المخية الحسية من ناحية تطور خلايا وحيث تكون العلاقة الديناميكية بين المخ وما تحته بشكلها المتزن لمعتدل . ويلاحظ من بين هؤلاء أقلية ضئيلة يبلغ عندها مستوى التطور المتكافيء للمراكز المخية اللغوية والحسية ارفع درجاته يصاحبه أيضاً تطور عال متكافيء في خلايا المخ والأقسام الدماغية التي تقع تحته افيرزون في كل من العلم والفن على حد سواء : ليونارد دافنشي مثلاً وغوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ولوموزونوف (٧١١ - ١٧٦٥) .

أهم مصادر البحث

- 1) Anrep, G.V., translator, Conditioned Reflexes, Dover, New York, 1960.
- 2) Yant, W.H., translator, Lectures on Conditioned Reflexes, Lawrence and Washart, London, 1963.
- 3) Matzke, H.A., Synopsis of Neuroanatomy, Oxford University Press, 1967.
- 4) Morozov, G.V., Nervous and Psychic Diseases, Mir Publishers, Moscow, 1968.
- 5) Penfield, W., Speech and Brain Mechanisms, Princeton University Press, 1959.
- 6) Thomson, R., The Pelican History of Psychology, Penguin Books, London, 1968.
- 7) Woodworth, R.S., Psychology, Methuen, London, 1968.

The Emotional Aspect of Human Life Its Physiological Bases and Social Conditions

Nouri Jaffar, Ph.D.

All mental processes may be conditionally divided into the three basic groups, although they are inseparably interconnected and represent man's indivisible mental activity : (1) intellectual processes conditioning man's cognitive activity. (2) Emotional processes underlying man's attitude to the surrounding phenomena, and (3) volitional processes determining man's volitional acts.

The emotions, which express man's attitude to the surrounding world, mean that man does not merely perceive his surroundings with a certain emotional attitude. He manifests desires and strivings to make certain changes in them. Emotions : joy, sorrow, rage, love, etc. play an important part in the life of man. Fatigue sets in at different periods depending on the emotional attitude to the work being done. If the work is interesting, fatigue may long be delayed.

In their physiological action the emotion are customarily divided into two large groups : sthenic and asthenic. The first group is pleasant. The asthenic emotions weaken the processes of assimilation, reduce the tone of cerebral cortex and the force of the basic cortical processes- excitation and inhibition.

The physiological basis of elementary emotions, to which the mood or frame of mind belongs, is the activity of the subcortical centres. More recently, physiologists have obtained evidence permitting new approach to the problem of the mechanisms of emotional reactions. Hess showed that stimulation of different areas of the cliencephalon in animals produced too opposite types of reaction : fear and fury. Later Olds and Milner (1954) have described the discovery in the brain of centres where stimulation produces a « rewarding effect » and of centres where the effect is an opposite one of punishment.

د. نوري جعفر